كان **يقول رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم « فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعد هذا، أما الروم ذات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن، أهل صـبر، وأهله أهل لآخر الدهر، هم أصحابكم ما دام في العيش خير »**

كنز العمال ج ٢ حديث رقم ٢٣٥١

إن النـاظر في هـذا التوجيـه النبوي يتبين لـه أن المواجهـة مع الغرب تتسـم بالاستمرار، وهو يشير إلى الغرب بلفظ "الروم" فالغرب هو التحدي الأكبر لدار الإسـلام، وهو تحدٍ عنيد مسـتمر كلما هلك جيل من الغرب خلفه جيل آخر ذو صـبر على متطلبات المواجهة وتكاليفها، والأمثلة لهذا تمثلت مظاهرها في الأندلس وصـقلية وشـرق أوروبا وفي الكرات والهجمات المتوالية على دار الإسلام عبر ثغور بلاد الشام ومصر والمغرب العربي وفي معابر البحر الأحمر والمحيط الهندي.

ولقد بدأت معالم هذا التحدي الأكبر منذ حياة الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وغزواته في الشام لتمهيد الأرضية للمواجهة مع "الدولة البيزنطية" ومن أبرزها غزوتي مؤتة وتبوك.

وظهرت المواجهة الكبرى مع الدولة البيزنطية في أيام الخلفاء الراشـديين والخلافة الأموية ومن بعدها العباسـية مرورا بالمواجهة في الأندلس التي فتحت جبهة جديدة للمواجهة مع الغرب في الأندلس وفرنسـا وكان آخرها المواجهة مع شارل مارتن في موقعة "بلاط الشهداء" التي هزم فيها المسلمون فكانت المواجهة سجالا بين المسلمين والغرب سواء في شرق أوروبا أو غربها.

ولكن المنعطف الخطير في هذا الصراع الطويل كان مع الحروب الصليبية التي قام فيها الغرب بمهاجمة المسـلمين في عقر دارهم يوما ما لأول مرة منذ بداية

الصراع والاستيلاء على الأراضي الفلسطينية وبيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى التي لم تكن دوافعها دينية بحتة كما يظهر في ذلك من مراجعة خطبة البابا أوربان الخامس التي وجهها إلى مقاتلي الحملة حيث أن الدوافع كانت دينية اقتصادية وهنا نتذكر قول المؤرخ البريطاني هيربيرت فيشر حيث قال **« منذ متى والدين هو الدافع الوحيد لنا »** هذه الحملة نقلت الصراع إلى أراضي المسلمين وهو ما يمثل تحديا خطيرا للقوى الإسلامية فكان عليها أن توجه تجاهه الاستجابة المناسبة والمجدية لرد هذا التحدي، **وهنا وقبل سرد بقية مراحل الصراع لابد من التوقف لإبداء ملاحظتين :**

- الأولى:

لابد لفهم عملية الصراع أن نفهم ما قدمه توينبي صاحب نظرية "التفسير الحضاري" عن مفهوم التحدي والاستجابة حيث أن الحضارات تواجه مجموعة من التحديات (مواقف وظروف ومشكلات صعبة) يتم التعامل معها إما باستجابات ناجحة تؤدي إلى التغلب عليها والوصول إلى تحقيق الهدف المنشود وإلى استجابات فاشلة لا تؤدي إلى تحقيق الهدف المنشود.

ويرى أرنولد توينبي أن الفئة ذات الرؤية والتصور والتي تطرح رؤية للمستقبل لمواجهة التحديات هم المعول عليهم في عملية المواجهة وتحقيق الاستجابة الناجحة بشرط أن تنقاد لها الأغلبية وحينها يقودوا المجتمعات للتغلب على ما يواجههم من عقبات.

- الثانية:

أن من كتبوا في هذه المرحلة التاريخية في الصراع بين المسلمين والغرب (الحروب الصليبية) قد اتخذوا أسلوبا معينا وهو يبدأ باستعراض الحملات الصليبية والمجازر والأهوال التي رافقت هذه الحملة ثم يقفزون مدة نصف قرن من الزمان ليتحدثوا عن حركة الجهاد العسكري التي قادها آل زنكي ثم صلاح الدين وقد انتهت بتحرير البلاد وتطهير المقدسات وهذا تصور مخالف تماما لما

ذكرته المصـــــادر التاريخية الأصـــلية التي أرخت للأحداث والآثار التي تركها الذين عاصروا تلك الوقائع وشاركوا فيها كما سنبين إن شاء الله.

ومن خلال فهمنا للملاحظتين الســابقتين يتضـح لنا ما حدث في هذه المرحلة من الصراع وما تلتها من مراحل.

لقد قامت خلال هذه المرحلة مدارس تغييرية – سواء مدرسة الغزالي أو مدرسة عبد القادر الجيلاني – لتغيير الوضــع القائم في المجتمعات الإســلامية وتحقيق الاستجابة الناجحة للتحدي الصليبي وخلصوا إلى أن **العلاج يتلخص في :**

١) إيجاد جيل من القيادات النابهة القادرة على مواجهة التحدي الصليبي.
٢) رؤيـة استراتيجيـة متكاملـة للإصـلاح ومواجهــة الخطـر الصليبـــي حتى اقتلاعه من جذوره من أراضـي المسلمين.

ولقد أدركت هذه القيادات أن "**مركز الثقل**" في الصــراع الاســتراتيجي مع القوى الغربية هو توحيد مصــــر والشــــام، حيث أنهما معا هما الهلال الأمني لبلاد المسلمين حيث أن عملية التوحيد للشام ومصر هي التي مكّنت صلاح الدين بعد ذلك من محاصرة المشروع الصليبي وإعادة القدس وتمهيد الطريق للقضاء التام على هذا المشـــروع في بلاد المســـلمين في مراحل لاحقة، ولكن لايفوتنا هنا أن ننبّه على تغيير حدث في العقلية الغربية في المواجهة مع المســـلمين ظهر في الحملتين الخامسـة والسـابعة حيث تبين لهم أن مركز القوة الحقيقي للمسلمين هو في مصر ولهذا وجهوا حملاتهم إليها ولكن فشلت محاولات غزو مصر.

واســتمرت المواجهة حتى اســتطاع المســلمون في عهد الأشــرف خليل إخراج الصـــليبيين تماما في بلاد المســـلمين ثم اســتكمل من بعده من ســلاطين المماليك تطهير البحر المتوســط من الوجود الصــليبي تماما فنجد أنها كانت اســتراتيجية طويلة الأمد للتعامل مع التحدي الصـــليبي امتدت لعدة أجيال ومراحل بداية من

حركات التغيير في المجتمع المسلم ومن أبرزها مدرستي الغزالي والجيلاني، مرورا بالدولة الزنكية ثم صلاح الدين والدولة الأيوبية ثم دولة المماليك صراع طويل وكفاح وجهاد ومثابرة لكن برؤية واضحة واستجابة ناجحة.

ولكن المشاريع الصليبية استمرت في هذه المرحلة الفارقة بين مرحلتين (القرن الرابع عشر الميلادي)، فقد ظهرت تقارير واستراتيجيات الهدف منها العودة إلى أراضي فلسطين مرة أخرى، وضعها رجال دين وبتشجيع من البابوية وما احتوته تلك التقارير من خطط كاملة وضعها منظروها لمواجهة كافة الاحتمالات التي تؤدي إلى نجاح المشروع أو الجملة المقترحة مثل كيفية الإعداد للحملة واستراتيجية حربها وتمويلها و قيادتها والطرق المتوقع السير فيها والأماكن المنتظر الاستيلاء عليها وكيفية حكمها والنتائج المتوقع الحصول عليها في تلك المشاريع ولكن لم يتعد الأمر في تلك المشاريع على الخروج من خطط الأوراق إلى الواقع العملي ولكنها في الحقيقة كانت تمهيدا لرؤية استراتيجية جديدة للتعامل مع الصراع مع المسلمين ظهرت في مرحلة لاحقة.

ظهرت على المسرح الأوروبي شخصية جديدة وهي "**هنري الملاح**" الابن الثالث لملك البرتغال والذي شارك وهو في سن الخامسة عشر في الاستيلاء على مدينة سبتة المغربية ١٤١٥ م ولكنه قدم رؤية جديدة حيث أنه آثر أن ينعزل في جزيرة من جزر البحر المتوسط مع مجموعة من البحارة والجغرافيين والفلكيين وذلك للتفاعل استراتيجيا مع القوى الإسلامية وكانت الرؤية الجديدة ترتكز على أن القوة العسكرية ترتكز على القوة الاقتصادية لتجارة التوابل القادمة من الهند فكان الحل هو الوصول إلى الهند لضرب هذه التجارة وبالتالي ضرب القوة الاقتصادية لقوة المماليك الإسلامية وبالتالي انهيار القوة العسكرية.

ولقد استمر العمل على هذا المشروع سنوات طويلة ومحاولات دؤوبة لتجاوز المحيط الأطلنطي والدوران حول قارة أفريقيا، ومن الجدير بالذكر أن هنري

الملاح صاحب المشروع توفي ١٤٦٠ م في حين أن بارثلميوديياز لم يصل إلى رأس الرجاء الصالح إلا في ١٤٩٨ م ووصل بعدها فاسكو داجاما إلى الهند بعد ذلك تحالف مع الهندوس ضد المسلمين وحصلت المواجهة الكبرى مع المماليك في موقعة "**ديو البحرية**" ١٥٠٩م أو التي كانت قاصمة الظهر لقوة المماليك العسكرية وسيطرتها البحرية على البحر الأحمر وبحر العرب وارتفع نجم الغرب في المواجهة مع المسلمين.

في هذه الفترة ظهرت السلطنة العثمانية كقوة عسكرية إسلامية جديدة في الصراع مع الغرب ولكنها مع جهدها الهائل في الجهاد ضد الغرب سواء في القتال في أوروبا الشرقية حتى الوصول إلى أسوار فيينا ١٥٢٩ م أو الجهود في البحر المتوسط (خيرالدين بربروسا وعَرُّوج بربروسا) كان مشروع الدولة العثمانية لاستعادة الأندلس وإخراج الغرب من المدن التي استولى عليها في سواحل الجزائر والمغرب ولكن في الحقيقة فإن الدولة العثمانية على جهدها الكبير في الصراع مع الغرب وما قدمته من حماية بلاد المسلمين والحفاظ على وحدتها ولكن لم تقدم رؤية استراتيجية متكاملة كاستجابة ناجحة للتعامل مع التحدي الغربي وذلك مقارنة بالاستجابة الناجمة من الغرب كما ظهر في رؤية هنري الملاح.

كانت الرؤية التي قُدِمت أيام هنري الملاح تهدف إلى هدفين :

١) الأول: تحطيم القوة الاقتصادية لقوة المماليك وبالتالي انهيار القوة العسكرية.

٢) الثاني: تطويق المسلمين من الأطراف بعد إدراك استحالة اختراق العمق الإسلامي (خبرة الحروب الصليبية) ومن هنا بدأت المرحلة الأولى للاحتلال الغربي لأراضي المسلمين.

وبدأت أولا من خلال احتلال غير مباشر ثم انتقلت إلى احتلال مباشر، وبدأ العمل بعد ذلك للوصول إلى الاستيلاء على العمق الإسلامي من خلال تهيئة

الأرض لذلك من خلال إيجاد نخب مناصـــرة للغرب داخل بلاد المســـلمين وكان هذا دور البعثات التبشـيرية في الشـام ومصـر، وأيضـا من خلال إضـعاف الدولة العثمانية والسيطرة الفعلية على القرار السـياسـي فيها، ثم من خلال مناهج التعليم في فترة الاحتلال المباشـــــر وتم وضــــع هذه النخبة العلمانية في أماكن القيادة السـياسـية والتوجه الثقافي والفكري للجماهير وما سـعد زغلول وطه حسـين منا ببعيد.

كان للصـعود الحضـاري للغرب وصـعود القوة المسـلحة للغرب في الوقت الذي كان فيه الانهيار الحضاري للمسلمين والضعف السياسي والاقتصادي والعسكري كل هذا كان له أثر في عدم وجود مشروع استراتيجي لإعادة نهضة المسلمين أو تقديم اســـتجابة ناجحة للتعامل مع التحدي الغربي الذي اخترق بلاد المســـلمين ووصـــل إلى أقصـــاه في الحملة الفرنسـية لمصـــر والتي كانت البداية الحقيقية لاختراق العمق الإســـلامي بعد ما كان الاحتلال لأطراف العالم الإســـلامي في المرحلة الأولى.

كان الهدف من احتلال العمق الإسـلامي هو الوصـول إلى إيجاد نخبة سـياسـية وثقافية وعســكرية موالية للغرب في بلاد المســلمين، نخبة متغربة في ثقافتها وسلوكها علمانية في أفكارها وتصورها للحياة والدولة والمجتمع بالإضـافة لذلك استغلال بلاد المسلمين اقتصـاديا لصـالح الغرب من خلال نهب ثروات المسلمين وتحويلها إلى الغرب مع السيطرة على الممرات المائية الرئيسية في العالم والتي هي في معظمها في أراضـي المسـلمين وفي مرحلة لاحقة زرعت القوى الغربية الكيان الصـهيوني في بلاد المسلمين بدوافع دينية ولضمان السيطرة الغربية على بلاد المسـلمين من خلال هذا الحليف الاسـتراتيجي للعالم الغربي في عمق بلاد المسلمين.

وعلى ذلك لابد أن نفهم أن الانعطاف التاريخي (للصـراع مع الغرب) أنه عندما دخل الاسـتعمار الغربي في قلب العالم الإسـلامي أعاد تشـكيل المنطقة وفرض منظومة الهيمنة وبالرغم من ذهاب الاستعمار المباشر من العالم الإسلامي إلا أن منظومة الهيمنة تعمل آلياتها وتسـاهم في وضـع المنطقة في (أسـر) جماعي وسـقف لا يمكن تجاوزه، **فالولايات المتحدة** "زعيمة العالم العربي الآن" **لها خطوط حمراء لا تسـمح لأحد أن يتجاوزها وهي :** "علمانية الدولة – أمن إسرائيل – تأمين المصالح الاقتصادية للغرب – وقف المد الجهادي"، ولو أردنا أن نلخص **ما لا تسمح به الولايات المتحدة** فنقول "إسلامية الدولة – استقلالية الدولة".

وهذا ما حدث في الجزائر عام ١٩٩٢م مع الجبهة الإسـلامية للإنقاذ من إيقاف الاستحقاق الانتخابي والدخول بالدولة في نفق الحرب الأهلية وذلك لأن هذا يهدد علمانية الدولة وهذا ما حدث في مصـر مع الانقلاب العسـكري على الرئيس محمد مرسي حيث أنه حدث ثلاثة أمور:

١) الأول: المادة ٢١٩ في الدسـتور وهي تهدد علمانية الدولة والتي هددت السـفارة الامريكية في اتصـال لها مع قيادات حزب الوسـط أنكم سـتعاقبون على ذلك (وهذا ما ورد على لسان نائب رئيس حزب الوسط).

٢) الثاني: كشـف الرئيس مرسـي لرؤيته لتحقيق اسـتقلالية الدولة وخروجها من التبعية (إنتاج الغذاء – الدواء – السلاح).

٣) الثالث: موقفه من حرب غزة ٢٠١٢ وتأييده لحماس وإنهائه لاتفاق هدنة ينهي حصار غزة.

فهو قد هدد "علمانية الدولة – التبعية الغربية – وأمن إسـرائيل" فحرك الغرب من خلال أدواته في مصـر النخبة العلمانية والجيش "العلماني" لإجهاض والقضاء على هذه التجربة.

وإن من الأحداث الفاصلة في الصـراع مع الغرب غزوتي نيويورك وواشـنطن ٢٠٠١م فكان لهما أثر واضح في إظهار مَن العدو وأنه لابد من استجابة ناجحة لتحدي هذا العدو مما جعل الكثير من الإسـلاميين ينتبهون لحقيقة الواقع ويعيدون حسـاباتهم في التعامل معه وهذا لا ينفي أن كثيرًا من الإسـلاميين أيضـا يغفلون عن هذا الأمر.

الحقائق التي لابد أن نفهمها أننا في حالة احتلال للعالم العربي والإسـلامي وأن عدونـا هو الغرب العلماني وأذنـابـه من النخبـة العلمـانيـة في بلاد المسـلمين بتنوعاتها "**السياسية – الثقافية – الاقتصادية – العسكرية**" وبتوجهاتها الفكرية "**ليبرالية – قومية – ناصـرية – ماركسـية**" فهذا هو "**فقه الواقع**" فالحكم على الشـيء فرع عن تصـوره، لابد من معرفة هذه الخلفيات التاريخية والحاضـرة لمعرفة التحدي وتقديم الاستجابة ولعودة الخلافة الإسلامية التي تعيد العزة والقوة للمسلمين في العالم.

إن قراءة دروس التاريخ – كما أسلفنا في بعض حوادثه – تبين بوضوح أنه لابد أولا من إيجاد نخبة "إسـلامية" تتصـف بأنها قادرة على وضـع وتنفيذ خطة نهضـوية للعالم الإسلامي وقادرة على إدارة الصـراع مع الغرب وأذنابه وقادرة على إدارة الدول، هذه النخبة ليسـت كيانا ثقافيا منعزلا في برجه العاجي وإنما هي نخبة تعيش قسوة الأحداث وتتجرع مرارة التجارب والأخطاء وتذوق حلاوة الإصابة. إنها نخبة حققت الإخلاص وباعت كل دنياها من أجل دينها، نخبة جادة لا تتهاون في تحقيق أهدافها أو تحقيق إعدادها للمواجهة، نخبة تظل تدرس وتدرس وتدرس حتى تحقق الفهم المتكامِل، تدرس السـياسـة والاجتماع والتربية والإدارة والتاريخ والإعلام وغيرها من العلوم الإنسانية حتى يتسنى لها أن تكون مؤهلة للقيادة والتوجيه، نخبة تحمل في طياتها فريقين: **فريق يتسـلم القيادة الفكرية** ويتجمع في مراكز الدراسـات والبحوث ليتفكروا في مشـكلات العالم الإسـلامي ويبصـروا قوانين الله في بناء المجتمعات و**فريق يتسـلم القيادة**

السياسية ويحوّل هذه القوانين إلى خطط واستراتيجيات، والخطوة التالية لإعداد هذه النخبة هي قيام هذه النخبة بتحصـــيل مفاصـــل القوة في المجتمعات وهي "**الإعلام – الاقتصـــاد – العســكر**"، هذا التحصـيل للقوة هو الذي يؤهل لمرحلة المواجهة في الصراع المشتد مع الغرب وأدواته في الداخل.

ولابد هنا أن نبين أمرين:

١) الأول: أن إدارة أي صراع هي فن وعلم له قواعد وضوابط:
تتحصل من خلال القراءات والدراسات في التاريخ العام والتاريخ العسكري وعلوم الاســتراتيجية وكتب الممارســة الســياســية ولا مجال فيه للاجتهاد الشـخصـي ولا للخبرة الشـخصـية ولا لحسـن الظن ولا للدروشـة ولكن هناك مجال للإبداع في إدارة الصراع في ظل العلم.

٢) الثاني: أن مركز الثقل فيه هو الجماهير (الرأي العام) (الناس) (الشعب):
فكما قال المفكر الاســـتراتيجي كلوز فيتزفان « **مركز الثقل في الصــــراع الأهلي هو الجماهير** »، إن الاســتراتيجية المتبعة دائما لأعدائنا – كما رأينا في هذا الانقلاب على الرئيس مرســـي – هو عزل الحركة الإســـلامية عن الجماهير ووضـــعها في فضـــاء من عداوة الجماهير لها وهذا أمر واضـــح ويجعلنا نخســـر المعركة في كل مرة، ولذلك لابد لنا من فهم هذه الحقيقة وإعطائها قدرها من الاهتمام البالغ ووضـــع آليات ووســـائل ومؤســـســات – نبتكرها نحن – لكســب الرأي العام لصـفنا وكسـر حالة العزلة المفروضــة علينا في إطار علوم الدعاية والإعلام والرأي العام، وإدراك مركز الثقل في أي صراع والتعامل معه بنجاح يضمن النصر بإذن الله.

إن حســـم الصـــراع مع الغرب العلماني وأذنابه من النخب العلمانية في بلاد المسـلمين لا يكون إلا بالمواجهة الفكرية والسـياسـية والاسـتراتيجية من خلال إعداد طويل وجاد للوصول لحالة التفوق الاستراتيجي على الخصم.

ولنكن واضـــحين في أن الرهان في مواجهة مشـــروع الهيمنة الغربية يقع على "الأمة" ككل وليس فقط مجموعات أو جماعات محددة يمكن أن تقوم بدورها في قيادة المدافعة والمقاومة، وهي عملية متعددة الجوانب الاقتصـــادية والســـياســـية والفكرية والاستراتيجية، وهي تراكمية النتائج وسوف تستمر إلى أجل معروف، وتُحقَق فيها النقلات الفرعية فقط عندما نكون مؤهلين لذلك وعلى قدر الأمانة والمســـؤولية، إن الأمر جد خطير وهو واجب في أعناقنا لا خلوص لنا عنه إلا بتحقيقه على الوجه الذي يرضي ربنا.

وهنا أتذكر تصـــريحا لأحد قيادات النصـــيرية في جبل محســـن في لبنان وهم في مواجهة دائمة مع أهل الســـــنة في طرابلس الشـــــام حينما قال "**القتال عندنا مثل الخبز بل أهم من الخبز**" فهل نحن القتال عندنا أهم من الخبز؟! ألم يخبرنا النبي صـــلى الله عليه وســـلم عن الوهن تحذيرًا منه « **حب الدنيا وكراهية الموت** »، وأتذكر هنا أيضـــــا قول ذلك العلماني بعد مذبحة الحرس الجمهوري حينما قال "**نزلت دماء وســـتنزل دمااااء**" يومها علقت على الفيســـبوك قائلا : **كم من أبناء الحركة الإســـلامية عنده هذه الرؤية الواضـــحة يعرف من عدوه وكيف يواجهه المواجهة الصحيحة !!**

لابد من رؤية واضــحة وطريق مســتقيم ونصــيحة خالصــة حتى نعرف وجهتنا وواجبنا وكي لا نستغرق في الحدث

الأستاذ وائل توفيق محمد
باحث في التاريخ والحضارة
drwaeltm.blogspot.com
fb.com/drwaeltm